التفاؤل والتشاؤم

اتفق فى أسبوع واحد أننى سئلت بعض الأسئلة فى موضوعات مختلفة :

سئلت عن مستقبل العروبة ، وسئلت عن مستقبل الإنسانية بعد القنبلة الذرية ، وسئلت عن مستقبل الهيئات العالمية ، أو مستقبل الهيئات التى تتكفل بتقرير السلام ، وتنظيم المعاملات الدولية .

فكان جوابى على هذه الأسئلة مما يبعث الطمأنينة والرجاء ، أو كنت فى هذه الأجوبة من المتفائلين ، ولم أكن من المتشائمين .

قال لى أكثر من سائل واحد : عجبًا ! إن فى شعرك لسخطًا وشكاية ، وإن فى طبعك لتبرمًا وثورة .. فكيف توفق بين هذا ، وبين نغمة التفاؤل التى نسمعها منك فى تلك المسائل الكبرى ؟

وأحب أن أنصف السائل فأقول : إن سؤاله غير عجيب ، وإنه سؤال يخطر على البال ، بل يخطر على بال الكثير .

ولكنى أحب أن أنصف الحقيقة فأبادر قائلًا ؛ ولكنه سؤال يقوم على خطأ ، ويتوقف على بيان هذا الخطأ تصحيح الرأى فى كل ما قيل عن المتفائلين والمتشائمين .

خطأ أن يخطر على البال أن الشكوى دليل التشاؤم ، وأن قلة الشكوى دليل التفاؤل .

لأن الإنسان قد يشكو لأنه مفرط فى التفاؤل ، وقد يمسك عن الشكوى لأنه مفرط فى التشاؤم لا يرجو ولا يرى فائدة من الرجاء ، ولا يألم – من أجل هذا – لفقدان الرجاء .

وكل منا يستطيع أن يرى مصداق ذلك ، فيمن يعاشرهم من الأصدقاء والأصحاب . فنحن لا نشكو من الرجل الذى لا يهمنا ولا يستولى منا على موضع الثقة والأمل . وقلما نذكره بالنقد أو الملام ، لأننا لا نحاسبه على نقص ، ولا نعتقد فيه الكمال .

ولكننا نشكو من الصديق الذى نثق به ونعول عليه ، وننتظر منه المودة ، ولا ننتظر منه الجفاء .

فالشكوى إذن قد تكون مقياسًا للثقة والأمل ، أو مقياسًا للتفاؤل والإقبال .

وقلة الشكوى ، قد تكون إذن مقياسًا لليأس والإعراض ، وقلة الاكتراث ، لأن اليأس كما قيل إحدى الراحتين . فتكون الراحة على هذا المنوال من أبرز سمات المتشائمين .

ذلك هو موضع الخطأ فى السؤال .

وتصحيحه أن الإنسان قد يشكو لأنه ينتظر ويرجو فهو على هذا من المتفائلين ، وإن كان من الشاكين .

وأن الإنسان قد يكف عن الشكوى لأنه لا ينتظر شيئًا ولا يثق بشيء ، فهو على هذا من المتشائمين ، وإن خلا كلامه من السخط والامتعاض .

* * *

تصحيح آخر يلحق بهذا التصحيح : إن الرضا عن الحياة ، لا يستلزم الرضا عن كل شيء فى الحياة .

فقد ييئس الإنسان من هذا الأمر ويعلق الرجاء بغيره ، وقد ييئس من هذه الأمة فى حالة من الحالات ويرجوها فى حالة أخرى ، وقد يغضب ويرضى ، ويقدم ويحجم ، ويبالغ فى الريبة ويبالغ فى الاطمئنان وهو لا يحسب من أجل ذلك من المتشائمين . لأنه يجرى على سنة الحياة ، والحياة لا تجرى فى اتجاه واحد .. وحسبنا من التفاؤل أن يجرى الإنسان على سنة الحياة .

* * *

إذا صححنا ذلك الخطأ فلا حاجة بنا إلى بحث طويل لنعلم أن الناس جميعًا متفائلون ، وأن التفاؤل سنة الفطرة التى تجرى عليها بداهة ، وإن قالت الأفكار غير ما تقول البداهة ، فى حين من الأحيان .

لا حاجة إلى البحث الطويل لنعلم أننا جميعا متفائلون فى صميم الصميم .

فإن نظرة واحدة إلى الطريق فى مدينة من المدن العامرة –

ترينا أننا نحسن الظن بالدنيا وبالناس ، وإن كان فى حسن الظن خطر على الحياة ، بل خطر جد قريب .

فانظروا - مثلًا - إلى راكب السيارة فى الطريق المزدحمة بالسيارات: إنه يسلم حياته فى الحقيقة لسلسلة من الظنون التى لا يقوم عليها برهان : ألا يجوز - مثلًا - أن يكون سائق السيارة مجنونًا أو قليل الخبرة بالسواقة ؟ إنه يحمل رخصة من الحكومة . نعم ولكن من الذى يطلب منه هذه الرخصة قبل الركوب ؟ وهبه طلبها واستيقن من صحتها فمن أين له أن الموظف الذى أعطاه إياها لم يخطئ فى التقدير ؟ ومن أين له أن السائق لم يصب بالجنون أو بالخبل فى تلك اللحظة ، ولا نقول فى لحظة قبل ذلك ؟ ولنزعم أن هذا كله مستحيل - ولا استحالة فيه على التحقيق - فمن أين لنا أن السيارة القادمة علينا ، لا تصطدم بنا لسبب مفاجئ يعتريها فى أدواتها ؟ أو لأنها داست على حجر صغير فى الطريق فانحرف بها عن سوائها ؟ أو لأن القراريط القليلة التى تفصل بينها وبيننا ، لم تدخل فى حساب واحد من السائقين ؟ أو دخلت فى حسابه ولكن المطاط قديم ورديء فهو لا ينتظم على سوائه بحساب القراريط ؟

وندع السيارات فى الطرقات العامرة ، ونضرب المثل بقطار لسكة الحديد ، فى الخلاء .. وفى الظلام .

ينبعث القطار كالسهم المارق فى ظلمات الليل ، فيتوسد الراكب ما شاء من وساد ثم يستسلم للرقاد .

يقوم على حراسة الطريق مئات من المفتشين والمهندسين ، وموظفى الحركة وعمال الإشارة والتحويل . وربما كان واحد من هؤلاء سكران أو نائما فى ذلك المساء ،

ربما كان قضيب من القضبان قد رقت من تحته الأرض ، فانخسف أو غاص به حمل القطار .

ربما سها عامل الإشارة ، أو عامل التحويل ، أو ربما نزعت نوازع الشر ببعض المجرمين ، فقطع القضبان أو دمر القناطر ، نكاية بأحد الركاب :

وكل « ربما » من هذه « الربمات » الكثيرة كافية لضياع القطار ومن فيه .

ولكنهم لا يخافون شرها ، ولا يحسبون حسابها ولا يعتقدون فى قرارة أنفسهم ، إلا أن الأمر على ما يرام ، وأن كل شىء فيها على أحسن نظام ، وأن تلك الظنون أوهام فى أوهام .

يعتقدون ذلك دون أن يفطنوا إليه ، ويعتقدونه فى الجد والخطر وليس فى الهزل ولا فى الأقاويل ... ويعتقدونه على الرغم من سهولة الخواطر والاحتمالات التى تشككهم فى تلك العقيدة ، لأن كل احتمال منها جائز كل الجواز فى جميع الأوقات ، وكل

احتمال منها قائم فى العقل لا ينفيه برهان ، ولا يلحق به بطلان .

* * *

بل مالنا وللسيارات والقطارات ؟

وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟

فكل منا مثال للتفاؤل المفرط فى طبيعة الحياة لا يدانيه مثال .

كيف دخلنا إلى هذه الدنيا ؟ وبأى حالة من العجز والحاجة والنقص الشديد هجمنا عليها ؟

كل منا قد هجم على هذه الدنيا أضعف ما يكون المخلوق حولاً وحيلة ، وأوهى ما يكون الحيوان فى العقل و الجثمان .

هجم كل منا على هذه الدنيا عاريًا ساهيًا قليل الأداة ، محتاجًا إلى كل عون فى الطعام واللباس والمأوى والوقاية .

هجمنا عليها أضعف مما يهجم عليها الحيوان المولود ، لأن أكثر الحيوان المولود ، يقوم على أرجله ويسلك سبيله إلى العشب والماء .

وكل علامة من علامات هذا الضعف البالغ – هى فى الوقت نفسه علامة من علامات الثقة بقوانين الوجود ، وعلامة من علامات التفاؤل الأصيل الذى يمتزج بطبائع الأشياء ، وعلامة على أن الإنسان يستقبل الميلاد مغمض العينين ، مفتوح الغريزة ، معمور البديهة ، مهدى الجنان . وكذلك يصنع فى كل

خطوة كخطوة الميلاد .. وكم فى الحياة من خطوات كخطوة الميلاد ؟ .. كم فيها من ميلاد روح وميلاد فكر ؟ وميلاد قريحة ؟ وميلاد ضمير ؟

* * *

وليس الإنسان وحده عنوان التفاؤل فى ميلاده ، وطبائع حياته ودلائل تصرفاته .. فإن عالم الحياة كله يرينا أن التفاؤل هو سنة الحياة ، وأن الحيوان سعيد طروب ما لم يعرض له سبب من أسباب الشكاية ، فتأتيه الشكاية عارضة ، وتكمن فيه عوامل الرضا بغير سبب غير انتظام الفطرة على سوائها . فهو يرقص ويمرح ويغنى ويلعب إلا إذا جاع ، أو مرض ، أو فارق الأليف ، أو حيل بينه وبين الفطرة المستقيمة ، بعارض من عوارض الانحراف .

فالتفاؤل أصل دائم ، والتشاؤم عارض زائل ، وعلى هذه السنة البديهية ينبغى أن نواجه هذه الدنيا .. بل نحن نواجهها كذلك سواء أخذنا بما ينبغى أو أخذنا بنقيضه ، ولا ننحرف عن هذه السنة القويمة مختارين .

* * *

إنما نقرر سنة التفاؤل لأنها سنة العمل ، وسنة التكوين الصحيح ، وسنة الفطرة التى يدين بها الوجدان قبل أن تدين بها الأذهان .

وإذا قال الإنسان : إننى متفائل ، فإنه يقول إن العمل غير باطل ، وإنما يقول إن العمل ميسور مفيد ، وكل عمل مفيد ميسور فهو واجب لا محيد عنه ، لأن القعود عن العمل – مع إمكانه وجدواه – أمر غير معقول ولا مستساغ .

نتفاءل إذن لأننا لا نستطيع أن نتشاءم مختارين .

ونتفاءل لأننا نريد أن نعمل . فترك العمل هو النتيجة المعقولة لتشاؤم المتشائمين . أما النتيجة المعقولة لتفاؤل المتفائلين فهو أن يفعلوا ما يمكن ، وأن يلتمسوا ما يفيد .

إنهم يعملون ولابد أن يعملوا ، لأن العمل إن لم يكن فريضة من فرائض الأخلاق وسمة من سمات المروءة . فهو على الأقل حافز من حوافز الطبيعة ، وهو أمتع للنفس ، وأروح للحس ، وأدنى إلى التسلية فى إنفاق الأوقات وقضاء الأعمار .